

القنقاع بن عمرو التميمي رَجُلٌ بِأَلْفِ رَجُلٍ!!

■ بقلم الأستاذ مصطفى هديب

تلك هي شهادة الصديق رضي الله عنه في القنقاع، استمده بطل الاسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق بالمجاهدين، بعد ان سرح من جنوده من يشاء، بعد حروب الردة في الجزيرة العربية، وفي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، اعلن الصديق رضي الله عنه في الناس رغبة خالد في مزيد من المجاهدين، فانتدب الناس اليه، فلم يجبه احد الى ذلك!

يا خليفة رسول الله.. يا قنقاع تجهز لتلحق من غد بجيش خالد في العراق.

ونظر الجالسون الى بعضهم البعض، ونظروا في الرجل الذي انتدب وحده ليكون مدداً لجيش خالد بن الوليد! ونام القنقاع ليلته تلك وقد تجهز وصلى الفجر ثم أخذ طريقه من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العراق.

لا تجد ذكره الا محارباً، ولا تجد له الا

فقد استشهد في الردة كثيرون، وكان ابو بكر رضي الله عنه هو من امر خالداً ان لا يحارب الا براغباً وسار خالد بجيش قوامه (١٠) عشرة آلاف مقاتل!

وبعد هذا الموقف رفع الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته: «أيها الناس عليّ بالقنقاع بن عمرو، ومن آخر الصفوف بالمسجد، جاء رجل طويل نحيل، يحمل سيفه يَدِلْ بنفسه بشهامة وتواضع: «ليبيك

الشخصية الفذة!

وعندما جاء امر الخليفة ابي بكر رضي الله عنه الى خالد ان ينجد جيش المسلمين في اليرموك، كان القمعاق احد الجنود «العشرة آلاف» الذين صحبهم خالد من العراق الى اليرموك قاطعاً بهم بادية الشام في اعظم مغامرة في التاريخ، وكان عون الله وتوفيقه لهم في هذه المهمة المهلكة حاضراً.

ووصلوا ميدان المعركة، وتولى خالد رضي الله عنه القيادة، وكانت اليرموك من أشرس المعارك، واكثرها فرقاً في العدد! فقد كان عدد المسلمين (٤٠) ألفاً، وكان عدد الروم (٢٤٠) ألفاً، أي ستة أمثالهم! ولقي المسلمون عنثاً شديداً في قتالهم الروم، ثم جاءهم نصر الله عوناً لهذه الفئة المؤمنة التي جاءت تحمل راية التوحيد في الأرض، لتعلوا فوق الشرك.

والحقيقة التي تبرز أمام قارئ التاريخ الاسلامي، انه يجد دائماً أمامه ان المسلمين لم يكونوا يقاتلون بميزان متكافئ من العدد او العدد، وانما كانوا يقاتلون بآيمانهم، ويقينهم ان نصر الله دائماً قادماً!!.

فعال الابطال، وكان دائماً في المقدمة، وكان رجل المهمات الصعبة، وكان قائداً لأجل الاعمال، وكان عسكرياً مطبوعاً وجندياً كريماً نابهاً.. فبالى سيرة هذا البطل، ويمض فعاله العظام:

وينضم القمعاق الى جيش خالد رضي الله عنه وقد نظر اليه المجاهدون وشهادة الصديق تفرع آذانهم: «لا ينهزم جيش فيه القمعاق»! ويضمه خالد رضي الله عنه في مكانه الذي يستحقه.

وفي معركة ذات السلاسل، ينازل خالد ابن الوليد رضي الله عنه قائد الفرس «هرمز» وقد بيت الفرس المكيدة ليقتلوا خالداً اذا نشبت المبارزة، وعدا خالد رضي الله عنه على هرمز وحمله يريد به معسكر المسلمين، وانقض من مكنهم بعض المقاتلين الفرس ليفتكوا بخالد، وفي لمح البصر حمل عليهم القمعاق، وأعمل فيهم سيفه وفوّت عليهم الفرصة، وكان ذلك الاثبات الأول لصديق شهادة الصديق رضي الله عنه في هذا المقاتل المجاهد النابه الكريم.

بقيت هذه الفطنة وروح المبادرة تضعانه في مستوى الفعل القيادي، في المعارك التي خاضها لم يتخلف منها شيء من عناصر الجسارة والاقدام في هذه

إلي من مكروه أدخله على قسومي وأهل
قريتي).

فقال خالد: إنها لن تموت نفس حتى
تأتي على أجلها، وقال: باسم الله خير
الأسماء رب الأرض ورب السماء الذي
ليس يضر مع اسمه داء، الرحمن الرحيم،
فأهواوا إليه يمنونه منه، وبأدرهم
فابتلعه!! ولم يصب خالد رَضِيَ بشيء..
ذلك هو الايمان اليقيني!!

وفي اليرموك أبلى القمقاع بلاءً
عظيماً، مع ما أصاب المسلمين في سير
المعركة من الشدة أزالتهم مرات عن
مواقعهم! ولكن عون الله أولاً، ثم بسالة
المجاهدين وصبرهم وقيادة خالد رَضِيَ
استطاعت أن تهزم الروم الذين قيدوا
جنودهم بالسلاسل! وكانت اليرموك أم
المبارك في الشام التي أنهت الوجود
الرومي وأعلنت فيها راية التوحيد.

♦ فتح دمشق:

انشئ المسلمون بعد اليرموك يطهرون
بقية ارض الشام من الروم، وقد كانت
المهمة يسيرة مع ما فيها من شدة الصراع،
بعد أن انهارت القوة الضاربة الرومية.

وقد حاصر المسلمون دمشق سبعين

والله سبحانه وتعالى وعدهم بقوله:
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ النور: ٥٥ .

وكانوا يذكرون وعد رسول الله صَلَّى، فلا
يخالهم شك في النصر، قال رسول الله
صَلَّى: «قوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا
الامر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى
تطوف بالبيت في غير أحد، ولتفتحن كنوز
كسرى بن هرمز»... وهذا وعد الله تعالى:
﴿أَنَا لِنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

ومن مظاهر الإيمان العميق في النفس
الاسلامية، ما كان من أمر خالد بن الوليد
رَضِيَ عندما تناول السم، ولم يضره شيء،
فقد أخرج الامام الطبري بإسناده، وكان
مع ابن ببيعة وهو عمرو بن عبد المسيح،
منصفاً (خادماً له) فعلق كيساً في حقوه
فتناول خالد الكيس ونثر ما فيه في
راحته، وقال: ما هذه يا عمرو؟ قال: هذا
-وأمانة الله- سم ساعة، قال: ولم تحتب
السم؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما
رأيت، وقد أتيت على أجلي، والموت أحب

ليلة (وفي بعض الأقوال ان ذلك تم قبل اليرموك) ولم يجدوا حيلة في الأسوار والخندق المائي، والرماة على الأسوار يشتدون في ابعاد المسلمين.

وفي ليلة، جاءت أخبار من داخل المدينة انه ولد لبطريق الروم طفل فانشغلوا به، فقام خالد بن الوليد ومعه القعقاع بن عمرو وآخرون بالسباحة مستعينين بالقرب، ووصلوا الى الأسوار، ورموا بالسلالم فعلق اثنان فيها، وتسلقوا السور، ونزلوا وقاتلوا على الأبواب حتى فتحت واندفع المسلمون الى داخل المدينة، وانتبه الروم الى ذلك ففتحو لأبي عبيدة الباب الذي كان يقف خلفه، والتقى الجيشان.. هذا بالصلح وذلك بالفتح، وهكذا فتحت دمشق صلحاً (تولى مذعور بن عدي قتل حراس الباب، وقام خالد رضي الله عنه والقعقاع بتحطيم مفلاق الباب وفتحه).

وكان القعقاع كلما رأى فرقة من فرق جيشة كبر وكبر الناس معه، والقوا في روع الفرس ان هذا المدد لا نهاية له، وهم يرون ما يفعل القعقاع لا يفلت أحد من حد سيفه، وأراد فارسان من الفرس الثار لصاحبهما، فأنبرى لهما مع الحارث بن ظبيان بن الحارث وقتلاههما، ونادى القعقاع في الناس: يا معشر المسلمين،

ليغيث سعداً، وكان القعقاع على مقربة من القادسية فجر الفداة من يوم أرمات، وليشد مقدمه عزائم المحاربين، قسم رجاله الألف عشر فرق، وعهد اليهم الا تسير فرقة حتى تكون سابقتها على مدى البصر، وسار هو على رأس الفرقة الأولى، وبلغ سعداً وأصحابه بالقادسية قبل استئناف المعركة، فسلم عليهم وبشرهم بالجنود واقبالها، ثم تقدم الصفوف تستفتح القتال، فلما كان بين الصفين نادى: من يبارز! فخرج اليه ذو الحاجب وعرفه بنفسه قائلاً: أنا بهمن جاذويه، عند ذلك صاح القعقاع: يا لثارات ابي عبيد وسليط وأصحاب الجسرا ولم يطل بين الرجلين الجلال، فقد انقض القعقاع على ذي الحاجب وأورده حتفه (الفاروق عمر، هيكل ص ١٦١).

ويعود الجيش الذي جاء الى الشام الى العراق بدون خالد وكان على رأسه هشام ابن عتبة!

بعد فتح دمشق وانتصار المسلمين بفعل، سار هشام بن عتبة في ستة آلاف مقاتل، مدداً لسعد بن ابي وقاص رضي الله عنه، وقدم القعقاع في ألف من الجند أمامه

وكان القعقاع كلما رأى فرقة من فرق جيشة كبر وكبر الناس معه، والقوا في روع الفرس ان هذا المدد لا نهاية له، وهم يرون ما يفعل القعقاع لا يفلت أحد من حد سيفه، وأراد فارسان من الفرس الثار لصاحبهما، فأنبرى لهما مع الحارث بن ظبيان بن الحارث وقتلاههما، ونادى القعقاع في الناس: يا معشر المسلمين،

حين طلعت الشمس ينظر الى ناحية الصحراء، فلما بدت خيله تقبل كبر وكبر الناس معه، وقالوا: جاء المدد وأدرك هاشم ابن عتبة وجنوده رجال القعقاع، وجعل رجاله فرقاً، وان يتلاحقوا دراكاً، كما فعل القعقاع، ووصل هاشم والصفوف قائمة، واندفع يرمي بسهامه حتى وصل الى النهر، وعاد فلم يجرؤ أحد على مصاولته.

وكان للقعقاع وأخيه عاصم في اليوم الثالث فعل متميز! فقد حضرت الفيلة ورآها سعد تفعل الأفاعيل وتفرق الكتائب، فأرسل سعد الى القعقاع وشقيقه: «ان اكفياني الفيل الأبيض»، وأرسل الى حمّال والرّيبيل -وكانا من بني اسد- يقول: «اكفياني الفيل الأجرب» وكان كل فيل منهما بإزاء المأمور به.

وترجل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما في عيني الفيل الأبيض، فتراجع الحيوان من الألم ونفض رأسه وطرح سائسه ودلى مشفره وضربه القعقاع بسيفه، وحمل حمّال والرّيبيل على الفيل الأجرب، فارتد الفيل الى ناحية صفوف الفرس، ثم عاد الى صفوف المسلمين، وبقي مضطرباً الى ان رمى نفسه في ماء

باشروهم بالسيوف، فإنما يحصد الناس بها، فتواصى الناس بها وحملوا بسيوفهم على الفرس وجعلوا يضربونهم حتى المساء.

واتصل القتال وهو اليوم الثاني الى منتصف الليل، وقد ذكر المؤرخون ان القعقاع وحده قتل يومئذ ثلاثين رجلاً!! وكما ذكر المؤرخون ان بني عم القعقاع جملوا إبلاً وبرقعوها ودفعوها تحمل على الفرس كأنها الفيلة، وولت خيل الفرس نفاراً من منظرها، وهكذا انقضى «يوم أغواث» الثاني من أيام القادسية الفراء.

وقد بلغ من سرور سعد واغتياباه واطمئنانه بأحوال المسلمين حين عزم النوم: «ان تم الناس على الانتماء فلا توقظني فإنهم أقوياء على عدوهم، وان سكتوا ولم يتم الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء، فإن سمعتهم ينتمون فأيقظني فإن انتماءهم من السوء» (هيكل، الانتماء، اعلان المقاتل عن قبيلته).

وبدأ اليوم الثالث من القادسية وبين الصفين من القتلى والجرحى الضان من المسلمين وعشرة آلاف من الفرس، ودفن كل جيش قتلاه، ووقف القعقاع في المؤخرة

علقمة احد البغال فسقطت على رستم فكسرت ظهره، فألقى بنفسه في النهر، واندفع هلال خلفه وأخرجته وقتله، ثم صعد سريره وصاح: قتلت رستم ورب الكعبة!

قام جالينوس في الفرس يدعوهم الى النجاة وعبور النهر، وغرق منهم في النهر ثلاثون ألفاً مقرنين بالأصفاد، وأخذ ضرار ابن الخطاب علم الفرس وكانت قيمته ألف ألف (مليون) ومائتي ألف وانهزمت جنود يزدجرد شر هزيمة!

ومع ذلك أمر سعد القعقاع وشرحبيل أن يتعقبانهم، ثم اتبعهما زهرة التميم والناس من ورائه، وأدرك زهرة الجالينوس بجمع المنهزمين فقتله.

روي عن أم كثير زوج همام بن الحارث النخعي أنها قالت: شهدنا القادسية مع أزواجنا فلما أتانا أن قد فرغ من الناس، شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوي ثم أتينا القتلى فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، وما كان من المشركين أجهزنا عليه وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ونصرفهم به، وكان النصر الفاصل المبين!

والحمد لله رب العالمين

النهر، وتبعته الفيلة، وارتاح المسلمون منها!

واتصل القتال بين نهار اليوم الثالث، والليل القادم الى الصباح من اليوم التالي، اي (اربعة وعشرين ساعة) وسميت تلك الليلة بليلة الهزير، وأحس المجاهدون بالتعب الشديد، هل ينامون ويستريحون، كلا.. بل سار القعقاع في الناس يقول: ان الدائرة بعد ساعة، لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر مع الصبر.

ما أروع ذلك اليقين، وما أصدق، وما اعظم ثقته بوعد الله سبحانه وتعالى! واجتمع اليه رؤساء القوم، ومعهم جنودهم فصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه، وراى القبائل صنيع المهاجرين والأنصار، وحملت القبائل على من يبايئهم في قتال شديد ظل متصلاً حتى قام قائم الظهيرة!

وبدت صفوف الفرس تضطرب، وتراجع الفيرزان والهرمزان في المجنبتين فانفرج القلب، وهبت ريح دبور عاصف، فأطارت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق، وزحف القعقاع بمن معه الى السرير فبلغوه فإذا رستم قد قام عنه الى بغال قدمت اليه بمال، وضرب هلال بن